مصطلح الإستراتيجية الخطابية: بين الدرسين الغربي الحديث والعربي القديم

الدكتور: عمار بعداش
جامعة قالمة

- الملخص:

تتأسس هذه المقالة معرفيا، على طرح عام هو شمولية التفكير اللغوي، وانبناؤه على بنى علمية إنسانية كبرى، تؤمن بأن الحضارات ومخرجاتها، لا تقبل التشظي، من حيث المنشأ والمآل.

ومن ثمة ارتأينا أن نردد النظر العلمي المنصف في مؤلفات بعض علمائنا من أمثال الجاحظ، والجرجاني لنسخلص، جهودا أغمطها باحثونا المحدثون، تتصل بالدرس التداولي ومنظومته المصطلحية، وإن اقتصر مقالنا على مصطلح محوري في التفكير التداولي، ألا وهو مصطلح الإستراتيجية الخطابية، وهو ما لم يحل دون التعريج على بعض ما دار في فلكه من مفاهيم مساوقة له، كالمقام والسياق، الخطاطة وما إليها، من المصطلحات، التي سنحاول أن نبسطها في ثنايا المقال الآتي.

-الكلمات المفتاحية:

التداولية- الإستراتيجية الخطابية – التراث العربي- الخطاطة – التفكير الغربي.

-Résumé :

Titre de l'article: Le terme stratégie rhétorique, entre les cours occidentale moderne, et Anciens Arabes..

Cet article est basé cognitivement sur l'idée générale de l'extensive de la pensée linguistique. et son information sure les grandes structures scientifiques et humanitaires qui croit que les civilisations et leur source ne pas accepter la division de leur origines et leur sorts. Et puis nous avons trouvé que nous réitérons les études scientifique impartial de certains chercheurs de la littérature let que AL-jahid et AL-jerjani pour dessiner les efforts qu'il a caché par nos chercheur moderne.lie à leçon délibérative et son système terminologique même notre article limite par expression primordial dans la pensée délibérative est le stratégie rhétique terme et ce qui

n'est pas résolu sons approche certains de ce qui se passait dans les concepts que nous allons essayer simplifié dans l'article suivant.
Les mots-clés: pragmatique-stratégie rhétorique-patrimoine Arabe-calligraphe-la pensée occidentale.

تأطير:

لا بد أن نذكّر أولا – قبل توصيف الإستراتيجية الخطابية – بما لهذا المصطلح من خطر كبير في مجال الدرس التداولي عموما؛ فهو البوتقة التي تتفاعل فيها مختلف مكونات الخطاب بوصفه ثمرة اجتماع عناصر متعددة، ومجال تمظهر أدوات لغوية وآليات خطابية منتقاة، ويوصل تتبع هذه الآليات إلى معرفة الكيفية التي تعامل بها المرسل مع المرسل إليه (احترام / إهانة)، (إقناع / تسلط، تنازل عن الموقع الاجتماع / تعال...الخ).

ويرمي الخطاب من خلال وظيفتيه الكليتين (التعاملية والتفاعلية) إلى مقاصد محددة، قد يشي بها شكل – الخطاب – كما قد يغيبها.

يسمح فعل التغييب للغة بأن تصبح شكلا ودالا يقود – بدوره – إلى مدلولات ضمنية، مضمرة، لا تدرك إلا بتفعيل المعطيات السياقية، والعلاقات التخاطبية والافتراضات المسبقة، وهنا يبرز دور المرسل في ما يضعه من خطط محكمة (إستراتيجيات)، يتوسل بها إلى مقاصده وأهدافه، فيسم – اطرادها – الإستراتيجيات – الخطاب بسمة تتنامى شيئا فشيئا حتى تغدو ظاهرة لافتة لها أنساقها اللغوية وأدواتها الخاصة بها.

وفيما يلي محاولة لتتبع حياة هذا المصطلح في منابته المعرفية المختلفة:

1- مفهوم الإستراتيجية في ضوء اللغويات الحديثة:

ارتبط مصطلح(Stratégie) بالمجال العسكري الحربي عموما وبفن قيادة عمليات جيش مسلح على مسرح الفعل خصوصا، ثم درج في استعمالات مختلفة، سياسية، واقتصادية (تجارية)، وأدبية، ... بحيث اكتسب معنى عاما يدل على كل عمل منسق لأجل تحقيق هدف ما، فيقال: إستراتيجية انتخابية، إستراتيجية تجارية، إستراتيجية سياسية [1].

ثم انتهى به المطاف إلى المجال الأدبي، فظهر في استعمالات بعض اللسانيين، والنقاد جنبا إلى جنب مع نظرية الألعاب اللغوية لـ(فيتجنشتاين) ثم السيميائية...

أدرجه سعيد علوش في معجم (المصطلحات الأدبية المعاصرة) مفهوما قائما على ثلاثة أبعاد هي أنه:

أ) مصطلح مقتبس من نظرية اللعب، ودخل إلى السيميائية ليغطي حقلا إشكاليا يعتبر محيطه مبهما.

ب) مقرون بالسرديات، فميز بين (السّتراتيجية الخطابية)[2] المتعلقة بفاعل العبارة، كطريقة لإقامة خطاب البنيات السردية، وبين (الستراتيجية السردية) التي تستهدف إقامة مسوَّدَات سردية، تُمَكِّن من توليد الخطابات.

قصد بذلك الإشارة إلى إنشاء هذا المصطلح، وتبنيه من قبل حقول معرفية أخرى، منها (التداولية) التي تبدو في تلميحه إلى بداياتها المضطربة، و(حقلا) من حقول السيميائية يعتبر محيطا مبهما.

ج) اقتصاره على السرديات، وتوظيفه ضمن أطرها المصطلحية من خلال مفهوم البرمجة بمعناها الواسع للسردية المعقدة في تكوينها للموضوعات القيمية، وإقامة فاعلين ممثلين يتكفلون بإنجاز برامج سردية ملحقة "[3].

ثم فسر المسودة السردية*[4]، بأنها خُطاطة يتم بموجبها تصور السرد، وتسجيل كتابة عمل ما، دون اعتمادها[5].

ولنحتفظ بمصطلح (خطاطة) الذي سنعود إليه بعد أن نوجد تعريفا، نطمئن إليه لمصطلح (إستراتيجية).

– يرى (ميشال فوكو) أن (الإستراتيجية) مصطلح له معانٍ تتعدد بتعدد السياقات التي ترد فيها، وهي عنده على ثلاثة تصورات:

أولا : للتدليل على اختيار الوسائل المستخدمة للوصول إلى غاية معينة والمقصود بذلك هو العقلانية المستخدمة لبلوغ هدف ما.

ثانيا : للتدليل على الطريقة التي يتصرف بها أحد الشركاء، في لعبة معينة تبعا لما يعتقد أنه سيكون تصرف الآخرين ولما يخال أن الآخرين سيتصورون أنه تصرفه هو؛ باختصار، الطريقة التي نحاول بها التأثير على الغير.

أخيرا للتدليل على مجموع الأساليب المستخدمة في مجابهة ما لحرمان الخصم من وسائله القتالية، وإرغامه على الاستسلام... وعليه تتحدد الإستراتيجية باختيار الحلول الرابحة[6].

نستشف من تعريف (فوكو) السابق، ارتكاز مفهوم (الإستراتيجية) على خطوات منتظمة لبلوغ هدف محدد، بعضها ذهني، وبعضها لغوي، وبعضها الآخر سلوكي. وهي خاضعة

لاعتبارات السياق، وما يتيحه من وسائل وظروف، ولذلك عرفتها الموسوعة العسكرية بأنها: "علم وفن ينصرفان إلى الخطط والوسائل التي تعالج الوضع الكلي للصراع"[7].

فهي علم بالنظر إلى ما يجب معرفته من قواعد ضمن مفهوم "اللعبة"[8]الفتجنشتانية المتفرعة إلى: قواعد اجتماعية، وقواعد استبدالية وقواعد نحوية، وكذلك الحال مع كل "لعبة" أخرى، إذ لا بد أن تنطلق الإستراتيجية من قواعد علمية، ثابتة تبنى عليها مهارات فردية، تجعلها ناجحة عند فرد من الناس، وغير ذلك عند سواه وهي بهذا المعنى ومن هذا الوجه (فن) بكل ما تعنيه الفنية من براعة في الأداء، والتقمص والإيهام والتحايل.

يمكن أن نسجل –إذن– أن مفهوم الإستراتيجية، مفهوم دخيل على مجال الدراسة اللسانية والأدبية، إلا أنه سرعان ما وجد له مقعدا في منظومتها الاصطلاحية، وهو مصطلح حفلت به المعاجم الغربية في مجالاتها المختلفة، ذو بعدين متجانسين هما: البعد الذهني، والبعد المادي، وكلاهما متعلق بمجال حيوي، مؤطر له هو السياق، فالإستراتيجية –عموما– هي تطويع للقواعد – قواعد أية لعبة كانت – مع عناصر السياق المسوّر لها، ومنه صارت فعلا كثر استعماله في ميادين معرفية وحضارية مختلفة منها ميدان الدراسات اللسانية التداولية، وحقل تحليل الخطاب عموما، فهي بهذا المعنى مصطلح عابر للتخصصات[9].

و هو ما يقتضي منَّا الإجابة عن سؤال مفترض، حول مؤدى هذا المصطلح في ارتباطه بالخطاب؟

2) الإستراتيجية والخطاب:

ينحو "مفهوم الإستراتيجية" في الخطاب، منحى غير بعيد عن المسارات التي سبق ذكرها، لولا اشتغاله أكثر على صور مخصوصة، وعلاقات محددة، مرتبطة باللغة، وقواعدها، وما يدخل ضمن حيزها.

ففي مجال التداولية المعرفية– التي تَمْتَحُ*[10] من علم النفس المعرفي رؤاها وقواعدها– "تعرف الإستراتيجية بأنها سلسلة العمليات التي تعكس الاختيارات المتخذة لأجل الوصول إلى هدف معين"[11] بأقل جهد وأيسر تكلفة، وأوجز مدة.

وفي الدراسات المنتمية[12] إلى مجال تحليل الخطاب نجد تعاريف متعددة، تشترك جميعها في التمركز حول ثلاثة عناصر هي:

1)المرسل (الفاعل)، المتلفظ بالخطاب.

2) الهدف، الممكن أو في حكم الممكن.

3) المحيط، (السياق)، مجموع الإكراهات، أو المساعِدات الممكن استثمارها.

فلا يكون الخطاب استراتيجيا إلا إذا كان المتلفظ به، مخططا له، واعيا بالشروط الموضوعية والذاتية المحيطة به، محققا لميزة التنظيم في استعماله للغة.

فالإستراتيجية الخطابية وفق هذا التصور "عبارة عن المسلك المناسب الذي يتخذه المرسل للتلفظ بخطابه من تنفيذ إرادته، والتعبير عن مقاصده، التي تؤدي لتحقيق أهدافه من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية، وفقا لما يقتضيه سياق التلفظ لعناصره المتنوعة، ويستحسنه المرسل"[13].

فإستراتيجية الخطاب – إذن – شكل من أشكال (التحبير) الذي لا يصدر إلا عن روية، وتبييت للأفكار والمشاعر، وتجييش للصور والانفعالات، وتخطيط محكم يستشعر كل هذه الأطراف المؤثرة، وغير المؤثرة في عملية التخاطب ليجعل لكل منها، حظا، ودروا، ومقدارا، تحدده القوة العاقلة، حتى لا يحيد عن الهدف المخطط له.

وهنا يطفو إلى السطح مجددا، مصطلح (الخَطاطة) الذي يشرحه(غريز Grize) في الفقرة الآتية بقوله :" بإمكاننا أن نقول إن التخطيط يعرض موضوعات الفكر التي يشترك المتحاورون في بنائها، لا تبنى هذه الموضوعات من فراغ، وهي في الواقع تستند إلى مجموعة من المعارف المشتركة، التي تتميز بمظهرين أساسيين؛ أولهما هو كونها، ليس فقط مشتركة، ولكن كل طرف يعرف بأن الآخر يعرف كذلك، وثانيهما هو كونها موجودة بشكل دائم، وذات طبيعة اجتماعية"[14].

فمفهوم التخطيط عند (غريز) قائم على التشارك، والتبادل، والتفاعل، والوعي، وهو رسم بياني، ذهني، أولي قابل للتنفيذ من قبل (فاعل) كفءٍ واعٍ بما هو موجود حوله، هدفه دفع المرسل إليه، إلى تبني فكرة أو التخلي عنها، أو القيام برد فعل أو سلوك، في إطار المصلحة المشتركة، ولا يخفى ما لهذا المفهوم من ارتباط بالكفاءة التي يجب أن يتمتع بها هذا الفاعل، المنفذ " للخطاطة الخطابية"[15].

3) الإستراتيجية الخطابية في تراثنا العربي:

قبل أن نجاري المنهجية العلمية، ونبحث في مفهوم (الكفاءة) أو(الكفاية) أو(القدرة التواصلية) – على اختلاف معهود في الاصطلاح عليها – لا بد أن نحيل متلقي هذه الصفحات إلى عباب زاخر من التعاريف في فلك البلاغة والنقد، خصوصا، وعلوم اللغة

والأدب عموما، والتي تحمل في طياتها، إشارات قيّمة إلى انتهاج الخطيب العربي (أي متكلم اللغة العربية)،خططا خطابية قبل تصدره المجالس، أو اعتلائه أعواد المنابر، وقد سأل معاوية بن أبي سفيان، صحار بن عياش العبدي (40 هـ) عن سر بلاغته وقومه، فأجابه بما يوحي إلى التحبير، والتدبير، والتخطيط ، والإعداد المسبق، قبل التلفظ قائلا:" شيء تجيش به صدورنا، تقذفه على ألسنتنا "[16]، ولا شك أنه يقصد بالتجييش استيفاء المعاني حقها من التمحيص، والتدبر، والترتيب في النفس قبل "قذفها" على الألسنة، ولا يخفى ما لهذا التوصيف المبكر من دلالة على وعي الخطيب العربي بقيمة التخطيط قبل ممارسة الفعل الخطابي، ولذلك كانوا يؤثرون الصمت قبل الخطبة، وكأني بهم يقتصدون في الكلام، ويقرونه، ويستجمعون جهدهم قبل التلفظ به، زيادة في فرص إصابة المعاني والغايات، ولو أردنا تتبع ذلك في مؤلفاتنا التراثية، لجمعنا سفرا عظيما، ينوء بالعصبة أولي القوة، ولكن سنكتفي بالإشارة دون العبارة، تماشيا مع مقام البحث، من خلال طرق بابَيْ علَمَيْن من أعلام البلاغة والنقد، هما:(الجاحظ) و(عبد القاهر الجرجاني).

أ) بين الإستراتيجية والبغية عند الجاحظ:

أما (الجاحظ) فقد جمع في كتابه (البيان والتبيين) فأوعى، وكاد يأتي على كل ما له صلة "بالكلمة" من مبدئها إلى منتهاها، وإن كان الشاهد – في هذا المقام – استعماله مصطلح (البُغية) في رسالة (المعاش والمعاد) حين يقول:"...واجب على كل حكيم أن يحسن الارتياد لموضع البغية، وأن يبين أسباب الأمور ويمهد لعواقبها، فإنما حمدت العلماء بحسن التثبت في أوائل الأمور واستشفافهم بعقولهم ما تجيء به العواقب..."[17].

وهو هنا يقصد "بالبُغية" الهدف أو الغاية من كل عملية فكرية، فوسم في هذه العبارة "منتجا عقليا كاملا [...] وانظر بدقة إلى العبارة الأخيرة (واستشفافهم بعقولهم ما تجيء به العواقب) تجدها تعبيرا عن عملية "التخطيط" وما التخطيط؟ هو رسم لخطة السير رسما يمكنك منذ البدء معه معرفة النتائج "[18]قبل وقوعها ثم إن التخطيط السديد – حسب الجاحظ– ما راعى فيه صاحبه الواقع، لا الأوهام تماما كما دعا إلى ذلك، (غريز) عندما أقصى الموضوعات التي تبنى على "فراغ" والتي لا تستند إلى ما أطلق عليه "المعرفة المشتركة".

ب) بين راسل(russel) والجرجاني:

وأما (الجرجاني)عبد القاهر، فإذا قرأنا كتابيه (أسرار البلاغة) و(إعجاز القرآن) "أدركنا كم هي قوية تلك الصلة التي تنظم، الجرجاني في أوائل القرن الحادي عشر (توفي 1078) وبرتراند رسل في القرن العشرين (توفي 1970) فالفكرة عندهما واحدة من حيث الأساس وهو أن المعنى كائن في طريقة الترتيب..."[19].

ولولا هذا الترتيب لخرج الكلام من " كمال البيان إلى مجال الهذيان [...] وفي ثبوت هذا الأصل، ما تعلم به أن المعنى الذي كانت له هذه الكَلِمُ بيت أو شعر أ فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة. وهذا الحكم – أعني الاختصاص في الترتيب– يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المترتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل"[20].

فحصول الكلام لا يكون إلا عبر مسلكين؛ مسلك ذهني، محكوم بقوانين عقلية، منطقية، تقدم وتؤخر المعاني بحسب ما تقتضيه في ذاتها، وبحسب ما تفرضه علاقتها بما حولها من عالم الأشياء، أي بحسب (السياق)، و مسلك ثانٍ مادي، وهو صورة المعنى اللفظية، التي تقع عليها الحواس، وتطالها الأحكام والقواعد، قواعد النحو وغيره، وهذا – لعمري – هو "الإستراتيجية الخطابية" وكون هذه الإستراتيجية، "تعتمد على كفاءة الإنسان التداولية، وصناعتها لخطابه فإنه يلتمس الناس في مستواها، والتفاوت في مكان المزية في خطاباتهم"[21] على حد تعبير الجرجاني.

إن سعي المرسل إلى توظيف إستراتيجية معينة، لا يتم إلا إذا امتلك قدرة أو قوة تواصلية تتجاوز قوته اللغوية، إذ لا يتم له بلوغ "بغيته" بتعبير الجاحظ، بسوى حشد ملكات هي جوهر جهاز التواصل وهو ما اصطلح عليه بالقوة (الكفاءة) التواصلية (التداولية).

خاتمة:

لا يسعنا في ختام هذه المداخلة، إلا أن نذكر بمنهجنا الذي ارتضيناه في تسويغ الربط بين الثقافتين: الغربية، والعربية، القائم على إبراز المقولات العربية في خضم الإدراج السياقي للمقولات والنظريات الغربية الحديثة، تهيئة للمتلقي العربي، وتيسيرا له وهو يتلقى النظرية الغربية باستحضار النموذج العربي وتهيئته لاستقبال النظرية العربية باستحضار النموذج الغربي.

إن هذا المنهج – حسب رأينا– هو المنهج المثمر المنصف، الذي من شأنه أن يؤتي أكله في التعامل مع الثقافات كلها، سواء الغربية منها والشرقية، وهو المنهج الذي يشهد له

تاريخ الحضارات جميعا، ولا شك أن القراءة المنصفة لتراثنا العربي الإسلامي نفسه تفرزه وتعلي خطره، وما يضير هذه المداخلة لو أخذت به وهي تتحسس مفاهيم هذا العلم الوافد الذي تعرف منه وتنكر.

هوامش البحث

1-Charaudeau(Patrick) et Maingueneau(Dominique), Dictionnaire d'Analyse du Discours, Seuil ,Paris, France,1éd,2002,p :548.et voir aussi :Dictionnaire Encyclopédique 2000 , Larousse, Bordas/her,1999,pp :1499-1500.et v :Youssef M.Reda :AL-Kamel AL-Kabir plus :Dictionnaire du Français Classique Contemporain ,Français-Arabe,1271: مكتبة لبنان ناشرون ،بيروت – لبنان، ص

2- هذه صورة تعريبه للمصطلح الفرنسي ''STRATEGIE''

3- علوش (سعيد): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت (لبنان)، وسوشبريس، الدار البيضاء (المغرب)، ط1985،1، ص ص:109-110.

[4]– المقابل العربي الذي اختاره للمصطلح الفرنسي ''Schéma narratif'' وهو أقرب ما يكون – في رأيي – لمعاني مادة [خط ط] في اللغة العربي، ينظر: الجوهري(أبو نصر إسماعيل بن حماد): تاج اللغة و صحاح العربية، تح: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط1987،4، مجلد3، ص:368. ويؤديه بصورة أدق مصطلح (خطاطة)أو(مخطط).

5- علوش (سعيد): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ص:112.

6- دريفوس(أوبير) ورابينوف (بول): ميشيل فوكو (مسيرة فلسفية)، تر: جورج أبي صالح، مع مراجعة وشرح: مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت– لبنان، دط، دت، ص:200.

7- الأيوبي (هيثم وآخرون): الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (لبنان)، دط،1981، ج1، ص:66.

8- ينظر: بلخير (عمر): تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003،
ص ص:10- 11.

9 - ينظر: طلحة (محمود): تداولية الخطاب السردي، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، عالم الكتب الحديث، إربد -الأردن، ط2012،1، ص:139.

10 - كثيرا ما يُجْرَى بهذا المصطلح مجرى اشتقاقه من مادة[م ت ح]إلا أنه في عرف محللي الخطاب مشتق من اسم المُحِّ، وهو خالص كل شيء، و منه المُحَّة، صُفرة البيض. ينظر: المسدي: الأسلوبية و الأسلوب، ص:148.

11 - السرتي(زكريا): الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، عالم الكتب الحديث، إربد -الأردن، ط2012،1 ص:252.

12- ينظر مثلا: الشهري: إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت– لبنان، ط1، 2004، ص ص55، 56، والسرتي :الحجاج في الخطاب السياسي، ص ص:252، 253: فقد أوردا جلَّ التعاريف المتبناة من قبل محللي الخطاب.

13- الشهري: ص:62.

14- JEAN-BLAISE GRIZE : logique naturelle, et représentations sociales, Invited Lecture Presented at the 1st International Conférence on Social Représentation, Ravello, Italy, 1992, p :3.

15 - نقترح استعمال هذا المصطلح بدل (الإستراتيجية الخطابية)، لما له من نسب عريق في معاجمنا العربية، ولكفاءته في أداء ما يصبو إليه المخاطب / المرسل من مرامٍ وأهداف وما يحيل إليه من حيثيات، وظروف محيطة بالخطاب منذ وهلته الأولى، مذ يكون خاطرا إلى أن يصير شكلا، له خصائصه المميزة له.

16 - الجاحظ : البيان والتبيين: تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1960م. ج1، ص:96.

17- الجاحظ: مجموع رسائل الجاحظ، تح: محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، دط، 1983، ص:122.

18- زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، دار الشرق – بيروت– لبنان، ط3، 1981، ص ص: 152، 153، 154.

19- نفسه، ص: 248.

20- الجرجاني (عبد القاهر): أسرار البلاغة، راجعه وعلق عليه، عرفان مطرجي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت– لبنان، ط1، 2006، ص:16.

21- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص:61.